

٢ - ج - ٤ : الوحدة الرابعة

العصر العباسي الأول

لقد حاول بعض الولاة أن ينبهوا الخليفة الأموي إلى خطورة الموقف ، فكتب نصر بن سيار إلى مروان بن محمد - الذي كتب عليه أن يكون آخر خليفة للدولة الأموية - ينبهه إلى ما وصلت إليه الثورة ضد الدولة :

أرى بين الرماد وميض نار * وأخشى أن يكون لها ضرام

فإن النار بالعودين تذكي * وإن الحرب أولها الكلام

فقلت من التعجب ليت شعري * أ أيقاظ أمية أم نيام ؟

وعندما تنبه مروان بن محمد كان السيل قد بلغ الزبي وكانت ثورة العباسين ضده قد ثبتت أقدامها في الشرق والتقى الجيشان على ضفة نهر صغير يسمى الزاب فانهزم الأمويين ، وفر مروان ، وسقطت دولة الأمويين التي تكمل قرناً من الزمان ، ودخلت التاريخ دولة جديدة هي الدولة العباسية التي أقيمت بسواعد الفرس وسيوفهم ، وقد اعترف لهم بذلك دواوين علي بن عبد الله بن عباس في إحدى خطبه فقال : (إنا والله مازلنا مظلومين مقهورين على حقنا حتى أتاح الله لنا شيعتنا أهل خراسان ، فأحيا بهم حقنا ونصر بهم حجتنا وأظهر بهم دولتنا) .

العصر العباسي الأول : اجتماعياً

كما كان الفرس هم الذين أقاموا دولة بني العباس ، فقد نالوا حظوة عظمى لدى الخلفاء العباسيين ، فارتفعوا حيث انحوا العرب فاتخذوا منهم الوزراء ، والقواد والولادة ورؤساء الدواوين ، فتولى خالك بن برمك ديوان الخراج ديوان الجند ، وتولى غيره من الفرس دواوين الرسائل والمظالم ، ولهذا اصطبغت الدولة بالصبغة الفارسية في كل مناحي الحياة الاجتماعية في الملبس والمأكل والمشرب والمسكن بل حتى في اللغة ، وفي العادات والأخلاق .

سمات الحياة الاجتماعية :

١/ الترف :

ما إن استولى العباسيون على الحكم حتى أغرقوا في الترف الذي تمثل في بناء القصور الكثيرة التي تحيط بها الحدائق الغناء التي جلبوا لها أنواع الأشجار النادرة ، وأثنت بفاحر الرياش والتحف ، فظهرت الحياة الاجتماعية بمظهر فارسي صارخ حتى قيل أن شوارع بغداد وحوانيتها امتلأت بالأزياء الفارسية ، وظهرت ألوان في الطعام ذات الأسماء الفارسية التي لم يكن العرب يعرفونها مثل : السكباج والطفشيل والخوازمكة والفالودج وغيرها ..

٢/ المجون :

المجون كما ذكر في لسان العرب : (أن الماجن عند العرب هو الذي يرتكب المقايح المردية والفضائح المخزية ، ولا يمضه عدل عاذل ولا تقرع من بقرعه) . كان المجون قبل العصر العباسي أمراً فردياً لا يتعدى أفراداً معدودون ، أما هذا العصر فقد صار ظاهرة اجتماعية شاعت شيوعاً كبيراً حتى حملت بعض الباحثين أن يصف العباس بأنه عصر المجون .

٣/ الفوارق الاجتماعية :

كان المجتمع العباسي في هذا العصر ينقسم إلى طبقتين متميزتين الطبقة العليا التي تتكون من الخلفاء والوزراء وقادة الجيش والكتاب ، وهذه الطبقة هي التي استأثرت بطيبات الحياة الدنيا ، فاقتنت القصور والجواري وتدفقت جيوبها أثمار من الذهب والفضة والجواهر ، فأسرفت في اللذائذ ما حلّ منها وما حرم .

الوحدة الرابعة : العصر العباسي الأول

أما الطبقة الثانية فهي طبقة الفقراء المحاويج الذين لا يكادون يملكون قوت يومهم ، وهي طبقة العمال في المزارع والسفن ، والخدم في البيوت ، والحمالين في المواشي والأسواق والرقيق .

٤/ الطوائف الدينية :

تتكون الطوائف الدينية في المجتمع العباسي من النصارى الذين كانوا أكبر الطوائف بعد المسلمين ، وقد تمتعوا بحرية دينية واسعة ، فأنشأوا عدد ضخماً من الأديرة حول مدينة بغداد . كانت إلى جانب رسالتها الدينية منتزهات يقصدها الشعراء والأدباء وعلية القوم . وكان هناك اليهود الذين لم يكن لهم أثر واضح في المجتمع لقلة عددهم ولعزلتهم عن المجتمع من حولهم . وهناك أيضاً بعض الطوائف الصغيرة الأخرى مثل الصابئة والمجوس .

العصر العباسي الأول

شهد هذا العصر نهضة علمية وثقافية واسعة في كل جوانب المعرفة ، من علوم نقلية مثل: (التفسير والحديث والفقه وأصوله ، والقراءات ، وعلم الكلام ، والنحو واللغة والبيان والأدب) . وعلوم عقلية مثل: (الفلسفة ، والفلك ، والطب ، والرياضيات ، والكيمياء والجغرافيا) .

وظهر في كل نوع من هذه العلوم علماء وأدباء كبار ففي التفسير ظهر: (الطبري) ، وفي الفقه : (أبو حنيفة ومالك والشافعي وأحمد بن حنبل) ، وفي الحديث : (البخاري ومسلم) ، وفي القراءات: (نافع المدني) ، وفي الكلام : (إبراهيم النظام) ، وفي النحو واللغة : (الخليل بن أحمد وسيبويه) ، وفي الأدب : (الجاحظ وابن المقفع) ، وفي الفلسفة : (الكندي) ، وفي الطب: (ابن بختيشوع) ، وفي الرياضيات : (الخوارزمي) ، وفي الفلك ، : (ابن شاذان وغيرهم) . إن حركة الترجمة التي قادها ورعاها الخليفة المأمون بن هارون الرشيد ، تركت آثارها العميقة في الثقافة العربية ، بل في الثقافة الإنسانية عامة .

ونتيجة لهذه الثقافات المتنوعة من فارسية ويونانية ، وهندية . ظهرت أفكار وعقائد ومذاهب وفلسفات اتسمت بما الحياة الفكرية وتركت آثارها في أدب هذا العصر شعراً ونثراً.

أدب العصر العباسي الأول

أولاً : الشعر :

موضوعاته :

١ / المدح :

ظل شعر المدح محتفظاً بسماته القديمة التي تتمثل في المدح بالشجاعة والكرم والمروءة والوفاء والنجدة ، ولكن ظهرت المبالغة المفرطة التي تخرج عن حد المعقول .
مدح أبو نواس أحد الخلفاء قائلاً :
وأخفت أهل الشرك حتى إنه * لتخافك النطف التي لم تخلق

٢ / الوصف :

وجد الشعراء في هذا العصر باباً للوصف واسعاً ، وعلى الرغم من أن الوصف معروف ومتداول منذ العصر الجاهلي ، فإن الموصوفات تغيرت في هذا العصر تغيراً كبيراً فبعد أن كانت الصحراء ، والإبل وحمير الوحش ، وغيرها اتجه الوصف إلى القصور والحدايق وآنية الشراب ، والنياب الحريرية ، والزوارق الصغيرة التي كانت تلهو بها الطبقة العليا في المجتمع ، وقد صنعت على أشكال الحيوانات وغير ذلك من مظاهر الحضارة .
قال البحتري يصف بركة ماء في أحد قصور الخليفة العباسي المتوكل :
يا من رأى البركة الحسناء رؤيتها * والأنسات إذا لاحت مغانيها
كأن جن سليمان الذب ولو * إبداعها فادقوا في معانيها
إذا النجوم تراءت في جوانبها * ليلا حسبت سماء ركبت فيها

٣ / الرثاء :

إن الجديد في رثاء هذا العصر هو الرثاء السياسي والمذهبي وقد امتزج هذان النوعان وظهر من الشعر الشيعي . رثي الشيعة أئمتهم الذين قتلهم العباسيون رثاء حاراً ، فرثي عبد الله بن مصعب إبراهيم بن عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب أحد أشراف بني هاشم الشجعان الذي خرج على أبي جعفر المنصور فقتله المنصور :
يا صاحبي دعا الملامة واعلما * أن لست في هذا بألوم منكما
وقفا بقبر ابن النبي فسلما * لا بأس أن تقفا به فتسلما

قبر تضمن خير أهل زمانه * حسباً وطيب سجية وتكرماً

٤/ الهجاء :

الهجاء فن شعري معروف ، كانت سوقه رائجة في الجاهلية ولما جاء الإسلام عدّ الهجاء قذفاً يعاقب عليه ، فخبياً وأوشك أن يختفي إلا ما كان بين المسلمين والمشركين ، ثم اشتعلت ناره في العصر الأموي ، لأن الأمويين أثاروا النعرات القبلية .
أما في العصر العباسي فلم يخرج الهجاء عن المعاني التي ظل الشعراء يهجون بها من ييغضونه ، فهجوا بالبخل ، فقال بشار هاجياً بخيلاً يتوارى من الناس حتى لا يدعوهم إلى طعامه ، فصوره بهذه الصورة الساخرة :

فلا تبخلاً بخل ابن زرعة إنه * مخافة أن يرجى نداء حزين
إذا جئته للعرف^١ أغلق بابه * فلم تلقه إلا وأنت كمين^٢
ومن الجديد في هجاء هذا العصر الهجاء بالزندقة ، وهو هجاء خطر لأنه يعرض المهجو للقتل ، هجا بشار شخصاً يدعى عمارة متهماً إياه بالزندقة :
لو كنت زنديقاً - عمار - جبوتي * أو كنت أعبد غير ربّ محمد
لكني وحدث ربي مخلصاً * فحفتني بغضا لكل موحد

٥/ الفخر :

الفخر أن يتحدث الشاعر عن نفسه معدداً صفاته النبيلة في كرم وشجاعة ، ومروءة ووفاء ، قال عوف بن محلم الخزاعي :
ومنت إذا صحبت رجال قوم * صحبتهم ونييتي الوفاء
فأحسن حين يحسن محسنوهم * وأجتنب الإساءة إن أساءوا

٦/ الغزل :

شاع في هذا العصر الغزل الفاحش الماجن الذي يخذش الحياء ويهتك الأعراض ، ومبعث شيوعه في العصر العباسي الحضارة المادية التي اصطبغ بها ، والتيارات الفلسفية والأخلاق المستحلبة .

^١ العرف : المعروف

^٢ كمين : محتبئ

ولكن كان هناك غزل عفيف عذري ، وخير من يمثل هذا النوع العباس بن الأحنف الذي أرسل إلى محبوبته أبياتاً من الشعر تعبر عن حبه وشوقه :

أزين نساء العالمين أحيي * دعاء شوق بالعراق غريب
كُتبت كتابي ما أقيم حروفه * لشدة إغوالي وطل نحيبي^٣
وأنت من الدنيا نصيبي فإن أمت * فليتك من حور الجنان نصيبي

٧/ الشعر التعليمي :

هذا باب جديد من أبواب الشعر العربي جد في العصر العباسي الأول ولم تكن له جذور في شعر العصرين اللذين سبقا . ويبدو أن ظهور هذا الغرض من أغراض الشعر العباسي يعزى إلى أثر الثقافات التي اتسم بها هذا العصر ، لأن هذا النوع من الشعر معروف في الآداب الهندية واليونانية .

ومن اشتهر بالشعر التعليمي أبان بن عبد الحميد اللاحقي الذي تظم قصص كليلة ودمنة وقدمها للبرامكة ، قال :

هذا كتاب أدب ومحنة * وهو الذي يدعي كليلة دمنة
فيه دلالات وفيه رشد * وهو كتاب وضعته الهند
فوصفوا آداب كل عالم * حكاية عن ألسن البهائم

ثانياً النشر الفني :

إن العوامل والمؤثرات التي ذكرناها من قبل - هي نفسها التي أثرت في النشر . قال أحد الباحثين : (كان العصر العباسي الأول عصباً خطيراً حقاً في تطور النشر العربي ، إذا تحولت إليه الثقافات اليونانية والفارسية والهندية ، وكل معارف الشعوب التي أطلتها الدولة العباسية) .

وننتج عن تلك المؤثرات أن ظهر لأول مرة في النشر العربي النشر العلمي ، والنشر الفلسفي والنشر التاريخي ، وهي ألوان من النشر لم يكن لها وجود في الأدب العربي من قبل .

^٣ الإغوال : رفع الصوت بالبكاء .

^٤ النحيب : البكاء الشديد .

أنواع النثر :

أولاً : الخطابة :

اتجاهات الخطابة :

١ / الخطابة السياسية :

عندما انتصرت الثورة العباسية ، اتخذ زعماءها من الخطابة وسيلة ناجعة لإثبات حقهم في الخلافة ، ودفع خصومهم من الهاشميين عنها ،

٢ / الخطابة الدينية :

وقد قام بها الوعاظ الذين كانوا يقومون في المساجد فيحثون على التقوى ، ويحذرونهم مغبة ما هم من الفسق والفجور . وكانوا يضمنون خطبهم قصصاً من القرآن الكريم ، وقصصاً من الإسرائيليات فيصغي الناس إليهم منجذبين ، وكان بعض الخلفاء يعظون الرعية ، ويدعونهم إلى التمسك بالدين وبالأخلاق الحميدة .

خطب الرشيد فقال : (عباد الله ، إنكم لم تخلقوا عبثاً ، ولم تتركوا سدى ، حصنوا إيمانكم بالأمانة ودينكم بالورع ، وصلاتكم بالزكاة ، فقد جاء في الخبر أن النبي (قال : لا إيمان لمن لا أمانة له ، ولا دين لمن لا عهد له ، ولا صلاة لمن لا زكاة له) ، إنكم سفر مجتازون ، وأنتم عن قريب منتقلون من دار فناء إلى دار بقاء ، فسارعوا إلى المغفرة بالتوبة ، وغلى الرحمة بالتقوى ، وغلى الهدى بالإنابة) .

٣ / المناظرات :

المناظرة نقاش وجدال بين شخصين أو فئتين من أصحاب المذاهب والعقائد ، تستخدم فيها الأدلة البراهين والحجج ، كانت المناظرات تعقد في المساجد ، وفي قصور الخلفاء والأمراء. وظهرت المناظرات في هذا العصر يعود إلى ما كان فيه من ملل وفلسفات ، وآراء ومذاهب ، فهناك مناظرات بين زعماء المدارس النحوية ، مثل مناظرة سيبويه والكسائي، وهناك مناظرات في علم الكلام مثل مناظرة عبد العزيز بن علي الكنائي وبشر المريسي في خلق القرآن ، ومثل مناظرة أبي الهذيل العلاف وحرير يهودي حول نبوة موسى عليه السلام .

خصائص الخطابة :

- اهتم الخطباء اهتماماً كبيراً بصياغة خطبهم ، فاستخدموا السجع واختيار الألفاظ السهلة التي لا يتعسر فهمها على من يستمعون إليهم .
- تضمن خطبهم بالآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية ، وأقوال الحكماء والبلغاء ، وأمثال العرب .
- كان الخطباء يؤثرون المعاني المؤثرة التي تمس القلوب والعقول ورصعوها بجميل الحكم.

